الأهرام

١٥/٣/١٩٩٨

بقلم :

د. على الراعى

.نشرت احدى مجلات الاربعينات فى مصر وصفا للطريقة التى تعرف بها احمد رامى الى ام كلثوم. قالت المجلة ان صديقا للشاعر الغنائى الكبير. كان اسمه يومها شاعر الشباب، عرض عليه ان يصحبه حتى يستمع معه الى غناء مطربة جديدة اسمها: «ام كلثوم». هزأ رامى باسم المطربة وقال لصديقه: «ياشيخ ده اسمها يطفش بلد»! غير ان الصديق الملح فى اقناع الشاعر بدخول المسرح الذى كانت تغنى فيه المطربة الناشئة. دخل رامى المسرح ولم يعد، اصبح من بعد أسير فن ام كلثوم، وظل كذلك الى ان رحلت، وواصل من بعدها حبه الذى لا يتزعزع لسيدة الغناء العربى.

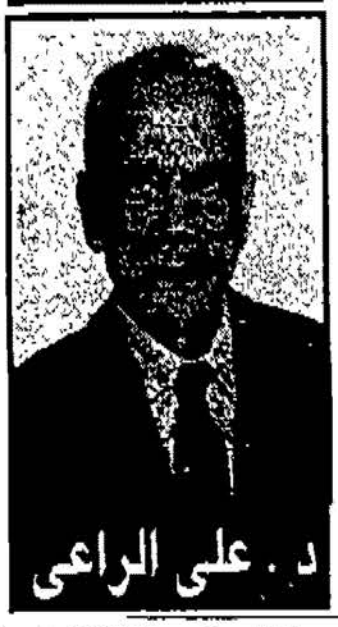

أم كلثوم تشدو ورامى يترنم

«تصفى لك الدنيا وأبكى أنا!»

هذا ما روته مجلة الاربعينات، اما رامى نفسه فيورد رواية اخرى جاء ذكرها مع عديد من الطرائف والمعلومات والحكايات فى كتاب الاستاذ عادل حسنين: «ام كلثوم: سيرة الحب» الذى نشره الكاتب بمناسبة قرب حلول الذكرى المئوية لميلاد الفنانة الكبيرة. قال رامى: كان لقائى بها لاول مرة فى جنينة الازبكية، كان هناك كشك صغير وكان عبدالحميد عبده يعزف بفرقة وترية. وفى الغروب كنا نذهب ونشرب الشاى. وفى هذا الكشك كانت تغنى ام كلثوم وكنا نجلس على كراسى متناثرة حول الكشك على النجيل وعلى الخضرة. كانت تلبس جلبابا أسود طويلا وفوقه بالطو لطيف بشراشيب لطيفة، وكانت تلبس عقالا له بكر صغير لطيف، مذهب اللون، وكانت تضع الكوفية داخل البالطو. وكان شكلها لطيفا جدا، ويمضى الأستاذ عادل حسنين فيقول: «فى الليلة نفسها يقترب منها شاب فى ريعان الشباب فيقدم لها نفسه: اسمى احمد رامى. فترد ام كلثوم: انت انت من اغنى اشعاره؟»

لو اخذنا بهذه الرواية، فسوف يستوقفنا ان ام كلثوم كانت تغنى اشعارا لرامى، قبل ان يتقدم لها، كيف وصلت إليها هذه الاشعار؟ لابد من افتراض ان رامى كان قد رأى الفنانة من قبل، واعجب بفنها الى الحد الذى جعله يكتب لها اغنيات. رآها متى؟ هنا تدخل رواية مجلة الاربعينات بوصفها اللقاء الاول الذى سلفت اليه الإشارة، بما يحمله من مفارقة طريفة بين الاستخفاف الاول بأم كلثوم والوقوع التالى له مباشرة فى اسر فنها.

●●●

اصبحت ام كلثوم «عروس الخيال» التى يتمسك بها الفنان كى تكون ملهمته، ومحور خياله، يلقى الفنان نظرة على الواقع ثم يعمل خياله فيه، فيجمله، ويجلوه ويسلط عليه اللون والضوء والظل، كى يظل السحر باقيا، لا ينقضى: يريد الشاعر الا يفيق ابدا من سحر «عروسته» ومن ثم يقاوم كل محاولة تدعوه الى سلوى الحبيبة. يذكر الكاتب الصحفى محمد تبارك فى كتابه عن ام كلثوم ان الفنانة عرضت على الشاعر ان يتزوجها، فرفض رامى العرض من فوره، ودهشت المطربة الكبيرة ولم تملك إلا ان تقول مستنكفة: «ياباى»!

قد تبدو هذه الرواية غير معقولة، ولكننى انا شخصيا لا ارفضها، لانها تفسر لماذا ظل رامى وام كلثوم متباعدين، لقد كان رامى يدافع - بضراوة - عن الموقف الحبيب لدى كل الشعراء: الحفاظ على العروس التى يخلقها هؤلاء لتبث فيهم الالهام والحماس، وتوحى لهم باعذب الكلمات. فاذا دخل القران من الباب، فر الخيال من الشباك، وخسر الشاعر فنه وحبيبته معا.

يروى عن شاعر ايطاليا العظيم دانتى انه قبل ان يكتب روايته المعروفة: «الحياة الجديدة» رفع عينيه فجاة - وكان آنذاك فى التاسعة - فرأى فتاة فى بداية شبابها هى التى عرفت باسم «بياتريشا»، فوقع على الفور فى غرامها، قالت الروايات انها حتى لم تحفل به. وقالت روايات اخرى انها كانت من ابتكار دانتى نفسه، كانت رؤية او طيفا تمسك به دانتى واصر على ان يجعله محور حياته الشعرية كلها. اذ ذاك كتب صاحب «الكوميديا الالهية» العبارة الدالة التالية وجهها فى نفسه الى بياتريشا: «ساكتب عنها ما لم يكتب رجل قط عن امراة». وقد كان ! كتب عنها روايته الطويلة: الحياة الجديدة، واصفا حبه لها، واصطحبها معه فى رحلاته المعروفة فى الكوميديا الالهية اتخذ رامى موقفا مشابها. تمسك بام كلثوم عروس خياله، واعرض عن ام كلثوم، المرأة التى تعيش على ارض الواقع، امراة من دم ولحم، وليس طيفا من رؤى الشعراء وتهاويلهم. كان رامى يغشى حفلات ام كلثوم ويجلس فى احد مقاعد الصفوف الاولى يسمع شدو ام كلثوم ويبكى. وصف موقفه هذا فى واحدة من اغانيه الجميلة قائلا: تصفى لك الدنيا وابكى انا»!

●●●

كان لقاء رامى بام كلثوم مصدر خير للشاعر والفنانة معا، هى التى وجهته الى ان يكتب شعره بالدارجة الراقية، فضمنت له الصيت البعيد، وحققت للاغنية المصرية على يديه سموا فى اللفظ والخيال والعاطفة معا، بينما كسبت هى شعر شاعر بالغ الرقة، عذب الخيال، اسهم فى تكوين قامتها الغنائية، وصاحبها فى كل مراحل حياتها، من الاغانى الاولى مثل: «إن كنت اسامح» الى اغانى فيلمى «دنانير» و «نشيد الامل» حتى المطولات الاخيرة فى الاربعينات حيث تالق شعر رامى تالقا كبيرا، غير ان ام كلثوم لم تعتمد - فى مرحلة النضج - على شعر رامى وحده، مدت تطلعاتها الى شعر شوقى فى قصائده الدينية فكسبت بها ارضا غنائية واسعة، شملت الوطن العربى باكمله. وقصدت بفنها ابواب شاعر الشعب الكبير محمود بيرم التونسى فكتب لها بعضا من اشهر اغانيها ذات المذاق الخاص مثل: «هو صحيح الهوى غلاب» و «الآهات» و «حبيبى يسعد اوقاته» و «اهل الهوى»، كما التفتت لشعر الشاعر الشاب احمد شفيق كامل فقدمت له اغنيات «انت عمرى» و «امل حياتى» و «ليلة حب» و «الحب كله» وغنت ايضا للشعراء: طاهر ابوفاشا ومامون الشناوى واحمد فتحى وصالح جودت وجورج جرداق. وغنت من الحان بليغ حمدى ومحمد الموجى الى جوار الحان الثلاثى العظيم: زكريا احمد ومحمد القصبجى ورياض السنباطى. والى جوار شعر شوقى: غنت ام كلثوم من شعر حافظ ابراهيم قصيدته الباقية: «مصر تتحدث عن نفسها» ثم توجت بحثها فى روائع الشعر باغنية «الاطلال» من شعر ابراهيم ناجى.

الى جانب هذا التراث الغنائى الكبير ينبغى ان نضيف اغانيها فى الافلام:

www.ethraadl.com

إثراء
المعارف الرقمية

الأهرام
١٥/٣/١٩٩٨

«دنانير» و«وداد» و«نشيد الأمل» وهي الاغنيات التي كانت جديرة بان تؤدي بام كلثوم الي رحاب المسرح الغنائي وكان هذا وحده جديرا بأن يرفع قامتها الفنية الي مرحلة عالية تليق بصوتها الشامخ. غير ان الواقع انها لا هي، ولا عبد الوهاب عنيا بان يعملا للمسرح الغنائي وذلك لأسباب عدة منها كثرة التكاليف، وقلة الاصوات الغنائية المساعدة وفي مقابل هذا كانت الاذاعة ومن بعدها التليفزيون يوفران وسيلتين طاغيتين في قدرتهما علي الانتشار غير المحدود وفي العائد المادي الذي كان يتوافر من العمل في نطاقهما.

وقد تحدثت في كتابي: «هموم المسرح وهمومي» باستفاضة عن موضوع المسرح الغنائي وعلاقة كل من عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ به، وشرحت ما ترتب علي الاعراض عن المسرح الغنائي من نتائج غير محمودة، اهمها ان تكريس الاغنية الفردية والدفاع عنها حتي النهاية قد ادي الي تجمدها، وتحجرها ولم تفلح الجهود المتعاقبة في إنقاذها من الاندثار وقد سمعت من اذاعة صوت العرب اخيرا حديثا دار حول الفنان العظيم محمد الموجي قال المتحدث ان الموجي مات وهو يشعر بحسرة بالغة قال: «زمان كنا نعرض اعمالنا في فاترينة عبد الحليم حافظ واليوم لا نجد الفنان الذي يمكن ان نلحن له» وهذه هي الحقيقة المؤلمة التي يجد الغناء العربي نفسه فيها الان: أصوات استهلاكية واغان تروج زمنا ثم يلقي بها في سلة المهملات وقد ادي هذا الفراغ الي نشوء ضجيج غنائي وموسيقي اصابا الاذن العربية بالتلوث الفني ولولا جهود قلة من الفنانات من امثال ماجدة الرومي وانغام إلي جوار كاظم الساهر وباستثناءات قليلة يقدمها عمرو دياب وراغب علامة، لخلت الساحة تماما من كل ما يمتع.

واعود الي ام كلثوم فاقول ان فن هذه السيدة العظيمة مهدد بان يصبح تراثا محمدا اقول هذا من واقع التقدير لفنها ورغبة مني في التحذير من خطر قادم لا محالة فليس يكفي ان تفتتح الاذاعة المسماة «محطة ام كلثوم» برامجها باغنياتها الطويلة وتختتمها بها، فقد نشات اجيال جديدة من المستمعين لا صبر لها علي هذه المطولات. فهي تسارع الي مقاطعتها. كما ان برامج الاذاعة العادية لا تذيع بعضا من اجمل اغانيها القصيرة المسجلة علي اسطوانات والتي كانت رائجة في الثلاثينات والاربعينات مثل «النوم يداعب جفون حبيبي» و«بجمالك ربنا يزيده» و«امتي الهوي ييجي سوا» و«ياما ناديت من اساسي» الي جوار الاغنيات التي لحنها لها رياض السنباطي في فيلم «دنانير» علي الاخص مثل «طاب النسيم العليل» التي كان صوت الفنانة الكبيرة فيها نداء عذبا اوشك ان يكون في حلاوة الاذان بصوت كبار المؤذنين.

ينبغي ان تذيع الاذاعة والتليفزيون هذه الاغاني الجميلة.. بدلا من المقتطفات التى تذيعها - التليفزيون خاصة - من حفلاتها المسجلة التى تتم بروح ابراء الذمة بدلا من الرغبة الحقيقية فى تعريف الأجيال الجديدة بفن أم كلثوم.

- وهناك اقتراح آخر اقدمه واعلم سلفا انه سوف يلقى اعتراضا من البعض وهو ان تتم اعادة النظر في الاغنيات الطويلة لاستبعاد التكرار الذى تلجأ إليه الفنانة مرة بعد مرة بعد مرة دون ان تقدم في كل مرة تنويعا يذكر. ان هذه المراجعة جديرة بان تركز الاهتمام على الاجزاء الفاعلة فى الأغنية وتخلصها من الرتابة، وتجعل إيقاعها اكثر استجابة لإيقاع العصر الحديث. ولكن هذه المراجعة ينبغي ان تتم بالتشاور مع كبار الملحنين من امثال كمال الطويل وعمار الشريعي ومن اليهما، بحيث تحتفظ الاغنية بجوهرها وأصالتها معا، مع الحرص على أن يشرف هؤلاء الملحنون شخصيا على عملية المونتاج.

وقد وصلنى اخيرا كتاب قيم عنوانه «صوت مصر: ام كلثوم والاغنية العربية والمجتمع المصرى فى القرن العشرين» وهو وثيقة مهمة حافلة بالآراء الموثقة ابداها كل من اتصل بام كلثوم من فنانين وموسيقيين وكتاب وصحفيين وغيرهم من ذوى الرأى. وقد كتبته بالانجليزية الكاتبة فيرجينيا دانيلسون، ونشرته الجامعة الامريكية بالقاهرة ضمن منشوراتها الثقافية. تقول الكاتبة: «فى التسعينات حلت تسجيلات القرآن الكريم محل اغانيها المسجلة على الكاسيتات. كذلك اقتطعت تسجيلات الفنانين من الشباب جزءا كبيرا من ارض ام كلثوم. وحين يتصدى فنانون صاعدون لتقديم اغانيها، فإنهم يقدمون اجزاء منها فقط فى كل مرة. اما مرات اذاعة اغانيها المسجلة لحساب الاذاعة والتليفزيون فقد اصبحت قليلة وتمضى الكاتبة فتقول: «ان اغنيات ام كلثوم ككلاسيكيات، وحتى التى سجلت عام ١٩٦٥ قد اصبحت تراثا. والقصائد - بصفة خاصة - ينظر إليها الآن على انها اعمال «محترمة» ولكن قلة من المغنين تقدم على ادائها، بحيث اصبحت مجرد امثلة تطبيقية فى فنون الغناء يهتم بها الطموحون فقط من دارسى الغناء والمستمعون الذين نذروا انفسهم عشاقا لفنها، انتهى كلام الكاتبة، وهو يدعم ما ذهبت إليه انفا من ضرورة النظر بعين جديدة لفن أم كلثوم وابتكار وسائل للتعامل معه تخرجه من طور التراث الجامد الذى يهدد بان يصبح متحفيا إلى طور التراث الحى الفاعل.

خارج المقال

رسالة حب ودعاء ارجو أن تصل الى الكاتب الحر الشجاع صاحب المواقف الثابتة فى الدفاع عن كل ما هو قيم ونبيل فى حياتنا إلى الصديق العزيز صلاح الدين حافظ ادعو الله ان يمن عليه بالشفاء العاجل ويعيده إلينا فى اقرب وقت.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية